



بكاء القيروان في الشعر المغربي بعد اجتياحها من قبل الهلالين

أ.د. سعد بوفلاقة

تمهيد:

موضوع هذا البحث هو «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم، بعد اجتياحها من قبل الهلالين»، وقد تعرضت فيه إلى رثاء المُدُن في الشعر العربي، في المشرق والأندلس، قبل نكبة القيروان، ثم حاولت أن أقدم صورةً عن بكاء القيروان في الشعر العربي، من خلال شعر أربعة شعراء قيروانيين، هم: ابن رشيق المسيلي القيرواني⁽¹⁾، وابن شرف القيرواني⁽²⁾، وأبو الحسن الحُصَري القيرواني⁽³⁾، وعبد الكريم بن فضال القيرواني⁽⁴⁾، كما تناولت الخصائص العامة في شعرهم.

1- لمحة عن بكاء المُدن في الشعر العربي قبل نكبة القيروان:

أ- في المشرق: بكاء المُدن في الشعر، هو بابٌ من الرثاء، عرفه شعراء المشرق، إلا أنهم لم يبلغوا فيه شأن المغاربة والأندلسيين، الذين كانوا فيه أكثر روعةً ولعل ذلك يعود لكون خراب المدائن، وزوال الدول تبعاً، إنما وقع بكثرة في المغرب العربي، ولاسيما في الأندلس، فقد أحزنهم أن يروا مُدُنهم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي الغزاة المكتسحين، فبكوا بقصائد ومقطعات، خلّدها لنا التاريخ في مصادره المختلفة، وأول ما وصلنا من الشعر المشرقي في بكاء المُدن، هذه المقطوعة للشاعر عمرو بن عبد الملك الوراق الذي بكى فيها بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون سنة سبع وتسعين ومائة للهجرة (197 هـ-812م)،

كلية الآداب، جامعة عنابة - الجزائر

حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون، ودام الحصار سنة واشتد البلاء وعظم الخطب⁽⁵⁾، وكثر الحريق والهدم ببغداد، ودُرست محاسنها فاستحالت إلى أطلال، وتنقل الناس من مكان إلى مكان هرباً من الجحيم⁽⁶⁾ ونظر الشعراء إلى مدينتهم الجميلة - بغداد - فرأوا ما نزل بها من صنوف التدمير والتخريب، فندبوا بشعرهم، ومن بكأها عمرو بن عبد الملك الوراق، إذ رد ما أصابها إلى العين فقال:

مَنْ ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زمناً قرّة العين؟

ألم يكن فيك قومٌ كان قُربهم وكان مسكنهم زيناً من الزين؟

صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين؟

أستودع الله قوماً ما ذكرتهم إلا تحدر ماء الدمع من عيني

كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم والدهرُ يصدع ما بين الفريقين⁽⁷⁾

وفي وقعة شارع دار الرقيق العظيمة التي هلك فيها خلقٌ كثير، يقول أحد الشعراء، يبكي بغداد وأهلها:

بكت عيني على بغداد لما فقدت غصارة العيش الأنيق

أصابتنا من الحساد عينٌ فافنت أهلها بالمنجنيق

فقومٌ أحرقوا بالنار قصراً ونائحة تنوح على غريق

وصائحة تُنادي: يا صحابي وقائلة تُنادي: يا شقيقي

إلى أن يقول:

فلا وَلَدٌ يُقيم على أبيه وقد هرب الصديق عن الصديق⁽⁸⁾

وفي بكاء بغداد أيضاً، قال الشاعر الحرّميُّ بن حسان الفارسي قصيدةً طويلةً « وصف فيها ما حلَّ ببغداد في بُرة آسية، ولوعة صادقة، صورَ خلالها الفتنة تصويراً دقيقاً مُسهباً، حتى لتبدو أمام العين، حين قراءتها، صورَ التخريب والدمار والقتل والدُعر يتعشى الناس في الطرقات»⁽⁹⁾، ومطلعها:

يا بُؤسَ بغدادَ دارَ مملكةٍ دارت على أهلها دوايرها⁽¹⁰⁾

وفي خمس وخمسين ومائتين للهجرة (255هـ) اقتحم الزنج مدينة البصرة، وأشعلوا نار الحرب فيها، وهزموا جيوش الخليفة، واستباحوا البصرة وغيرها⁽¹¹⁾، واستمرت مقاومتهم

للدولة العباسية بقيادة علي بن محمد مدة أربعة عشر عاماً، هددوا خلالها كيان الدولة العباسية، ودمروا البصرة عن آخرها، وقد بكاهها ابن الرومي (221-283هـ)^(1 2) بقصيدة وصف فيها غلبة الزنج عليها، واعتدأهم على الأموال والحرمات والأعراض، منها قوله:

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالْبَصْرَةِ مَا حَلَّ مِنْ هَنَاتٍ عِظَامٍ
أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزُّنْجُ جِهَارًا مَحَارِمَ الْإِسْلَامِ
كَمْ أَخٍ قَدْ رَأَى أَخِيَّ صَرِيحًا ثَرِبَ الْخَدُّ بَيْنَ صَرَغَى كِرَامٍ^(1 3)

ويبدو أن المشاركة لم يهتموا بهذا الفن اهتمام المغاربة والأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي غرضاً قائماً بذاته.^(1 4)

ب - في الأندلس: يقول الدكتور أحمد المكي: « فبكاء الممالك المنهارة والمدن الزاهية، فن أندلسي أصيل فيما أرى، ووجدت دوافعه في المشرق والمغرب على السواء، وخص الأندلس ببعضها، وتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها، فكان له معها قصيدٌ رائع أحياناً، ودون الجيد أحياناً أخرى، تبعاً لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية، وحظه من تجارب عصره عمقاً واتساعاً....»^(1 5).

وكانت الفتنة في قرطبة^(1 6) سبباً في بداية انتشار شعر بكاء المدن في الأندلس، إذ نظر الشعراء إلى عاصمتهم حينئذ - قرطبة - فوجدوا معالمها قد دمرت، ودورها قد خربت ونهبت، فندبوا بمراثيمهم، ومَن بكاهها ابن حزم (384-456) الذي كان قد غادرها والتجأ إلى المرية خوفاً على نفسه، لكنه ظلَّ يتمنى أن تكون له قبراً، فقال:

فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ولو أننا نستطيع كنت لنا قبراً
ولكن أقداراً من الله أنفذت تدمرنا طوعاً لما حلَّ أو قهر^(1 7)

وبكاهها ابن شهيد أيضاً فقال:

فَلِمَثَلِ قُرْطُبَةٍ يَقِلُّ بَكَاءُ مَنْ يَبْكِي بَعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ
دَارَ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَةَ أَهْلِهَا فَتَبَرَّبَرُوا وَتَعَرَّبَرُوا وَتَمَصَّرُوا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُتَفَطِّرٌ لِفِرَاقِهَا مُتَحَيِّرُ^(1 8)

وبكاها آخر بقصيدة منها:

أبكِ على قرطبة الزين فقد دَهَتْهَا نظرة العَيْنِ
كانت على الغاية من حسنِها وعيشها المستعذب أَلَيْنِ
فانعكس الأمر فما إنْ تُرَى بها سرورا بين اثنين
فاغْذُ وودعها وسر سالما إن كنت أزمعت على البين⁽¹⁹⁾

وبكاها آخرون أيضا⁽²⁰⁾، وتوسَّعوا في بكاء المدن والممالك الزائلة - فيما بعد - بعد أن رأوا مدنهم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي التَّصاري، فبكى ابن العَسَّال (عبد الله أبو محمَّد) مدينة طليطلة بعد أن استولى عليها التَّصاري سنة 478 هـ، وابن اللبَّانة دولة بني عباد، وابن عبدون دولة بني الأَفطس، عندها أزالهما ابن تاشفين، وبكى ابن خفاجة مدينة بَلَنْسِيَّة التي سقطت في أيدي الفرنجة سنة 488 هـ، كما بكى أبو البقاء الرندي الأندلس بكاملها بعد أن استردَّها التَّصاري، ولا يَتَّسع المجال هنا لذكر بعض النماذج من شعر هؤلاء، وبعد هذه النبذة عن بكاء المدن في الشعر العربي في المشرق والأندلس، نصل الآن إلى الحديث عن بكاء القيروان في الشعر المغربي.

2- بكاء القيروان في الشعر المغربي:

كانت القيروان قبل نكبتها سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة (449هـ) في أوج عظمتها، وقمة حضارتها، تزخر بالعديد من العلماء والأدباء الكبار أمثال محمد بن جعفر النحوي المعروف بالقَزَّاز (412هـ) وإبراهيم الحُصْرِي (413هـ) صاحب زهر الآداب، و(أبو الحسن الحصري 480هـ)، وغيرهم. كما كان بلاط المعزِّ بن باديس يَرْفُلُ بالعلماء والأدباء، وكان من بينهم ابن رشيق (390-486 هـ) وابن شرف (390-460هـ) اللذان حازا إعجاب المعزِّ بن باديس، وحظيا بعنايته، واهتمامه « وكانا مقدِّمين عنده على سائر من في حضرته، يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، فتنافسا وتنافرا، ثم تهاجيا»⁽²¹⁾ ولم يتصالحا إلا في ديار الغربه بجزيرة صقلية، حيث فر الشاعران بعد نكبة القيروان، وعاشا معا فترة من الزمن، لكن ابن شرف غادرها إلى الأندلس التي توفي فيها سنة ستين وأربعمائة للهجرة (460 هـ)⁽²²⁾ بمدينة إشبيلية، وبقي ابن رشيق في صقلية حتَّى وافته منيته على أرضها سنة ست وخمسين وأربعمائة (456هـ)⁽²³⁾ في رواية، وفي رواية أخرى سنة 463هـ.

وكلا الشاعرين بكى مدينة القيروان حينما اقتحمها عرب صعيد مصر، ومن بين ما وصلنا في هذا الفن من شعر ابن رشيق قصيدته النونية التي يقول فيها:

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كَرَامٍ سَادَةٍ بِيضَ الْوُجُوهِ شَوَامِخِ الْإِيمَانِ
مُتَعَاوِينَ عَلَى الدِّيَانَةِ وَالتَّقَى اللَّهُ فِي الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ
وَأَيُّمَةٍ جَمَعُوا الْعُلُومَ وَهَذَّبُوا سُنَنَ الْحَدِيثِ وَمَشَكَلَ الْقُرْآنِ
عُلَمَاءُ إِنْ سَاءَ لَتَهُمْ كَشَفُوا الْعَمَى بِفَقَاهَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَبَيَانِ
وَإِذَا دَجَا اللَّيْلُ الْبَهِيمُ رَأَيْتُهُمْ مُتَّبِلِينَ تَبْتَغِي الرِّهْبَانَ (24)

وأن بالتقى والورع، وخوف حبابرة الملوك منهم، لأنهم خافوا الله فخافهم كل الوري، إلى أن يقول:

كَانَتْ تُعَدُّ الْقَيْرَوَانُ بِهِمْ إِذَا عُدَّ الْمَنَابِرُ زَهْرَةَ الْبُلْدَانِ
وَزَهَتْ عَلَى مِصْرَ وَحَقَّ لَهَا كَمَا تَزْهُو بِهِمْ وَعَدَتْ عَلَى بَغْدَانِ
حَسُنَتْ فَلَمَّا إِذْ تَكَامَلْ حُسْنُهَا وَسَمَا إِلَيْهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانَ
وَتَجَمَّعَتْ فِيهَا الْفَضَائِلُ كُلُّهَا وَغَذَتْ حِلَّ الْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ
نَظَرَتْ لَهَا الْأَيَّامُ نَظْرَةَ كَاشِحٍ تَرْتَوِي بِنَظَرَةٍ كَاشِحٍ مَعْيَانِ
حَتَّى إِذَا الْأَقْدَارُ حُمَّ وَقَوَّعَهَا وَدَنَا الْقَضَاءُ لِمَدَّةٍ وَأَوَانَ
أَهْدَتْ لَهَا فَتْنًا كَلِيلَ مُظْلَمٍ وَأَرَادَهَا كَالنَّاطِحِ الْعِيدَانِ
بِمَصَائِبٍ مِنْ فَادِعٍ وَأَشَائِبٍ مِمَّنْ تَجْمَعُ مِنْ بَنِي دَهْمَانَ (25)

ثم يشير ابن رشيق بعد ذلك، إلى ما أصاب القيروان من دمار وكيف نقص بنو هلال العهد وغدروا بالقيروانيين، فقتلوا الرجال وسبوا النساء، ونهبوا الأموال، وشرّدوا الأطفال، وقد صور الشاعر خروج الناس حفاة عاثذين برَبِّهم، خائفين، هاربين، يحملون أطفالهم، فقال:

فَتَكُونُوا بِأَمَّةٍ أَحْمَدَ أَثْرَاهُمْ أَمْنُوا عِقَابَ اللَّهِ فِي رَمَضَانَ؟
نَقَضُوا الْعَهْدَ الْمَبْرُمَاتِ وَأَخْفَرُوا ذِمَّةَ الْإِلَهِ، وَلَمْ يَفُوا بِضِمَانِ
فَاسْتَحْسَنُوا غَدْرَ الْجَوَارِ وَأَثَرُوا سِيَّ الْحَرِيمِ وَكَشَفَةَ التَّسْوَانَ
سَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَأَظْهَرُوا مَتَعَسِّفِينَ كَوَامِنَ الْأَضْغَانَ

يَسْتَصْرِخُونَ فَلَا يَغَاثُ صَرِيحُهُمْ حَتَّى إِذَا سَمَوْا مِنَ الْأَرْنَانِ
فَادُوا نَفُوسَهُمْ فَلَمَّا أَنْفَدُوا مَا جَمَعُوا مِنْ صَامِتٍ وَصَوَانٍ
وَاسْتَخْلَصُوا مِنْ جَوْهَرٍ وَمَلَابِسٍ وَطَرَائِفٍ وَذَخَائِرٍ وَأَوَانِي
خَرَجُوا حُفَاةً عَائِدِينَ بِرَبِّهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ وَمَصَائِبِ الْأَلْوَانِ
هَرَبُوا بِكُلِّ وَلِيدَةٍ وَفَطِيمَةٍ وَبِكُلِّ أَرْمَلَةٍ وَبِكُلِّ حَصَانٍ
وَبِكُلِّ بَكَرٍ كَالْمِهَاءِ عَزِيزَةٍ تَسِي الْعُقُولَ بِطَرْفِهَا الْفَتَّانِ
خَوْذَ مَبْتَلَةٍ الْوَشَاجِ كَانَهَا قَمَرٌ يَلُوحُ عَلَى قَضِيبِ الْبَانِ⁽²⁶⁾

ثم يذكر مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وما آل إليه بعد النكبة، وكيف أصبح قبراً بعد أن توقفت الصلوات به، فكانت بذلك أعظم مصيبة أصابت الإسلام والمسلمين، وبعثت في نفوسهم الحزن والأسى إذ يقول:

وَالْمَسْجِدُ الْمَعْمُورُ جَامِعُ عَقْبَةٍ خَرِبَ الْمَعَاظِنُ مَظْلَمُ الْأَرْكَانِ
قَفَرٌ فَمَا تَغْشَاهُ بَعْدُ جَمَاعَةٌ لَصَلَاةٍ خَمْسٍ لَا وَلَا لِأَذَانِ
بَيْتُ يُوْحِي اللَّهُ كَانَ بِنَاؤُهُ نِعْمَ الْبِنَا وَالْمَبْتَنَى وَالْبَانِي
أَعْظَمُ بِتِلْكَ مَصِيبَةٍ مَا تَنْجَلِي حَسْرَاتِهَا أَوْ يَنْقُضِي الْمُلُوانِ⁽²⁷⁾

ويعضي ابن رشيق في قصيدته ليشير إلى أنَّ الأمة العربية والإسلامية في المشرق والمغرب، حينئذ قد أحزنها ما أصاب القيروان، فقال:

حَزَبْتُ لَهَا كُورَ الْعِرَاقِ بِأَسْرِهَا وَقَرَى الشَّامَ وَمِصْرَ وَالْخُرَّسَانَ
وَكَزَعَزَعَتْ لِمَصَابِهَا وَتَنَكَّدَتْ أَسْفَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَالسُّنْدَانِ
وَعَفَا مِنَ الْأَقْطَارِ بَعْدَ خَلَائِهَا مَا يَبِينُ أُنْدُلُسَ إِلَى حَلْوَانِ⁽²⁸⁾

ولم يقف الحزن على القيروان عند الإنسان، وإنما تجاوزه إلى الطبيعة، فالتجوم الزاهرة، والشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال، والأرض، قد اهتزت جميعها لمصاب القيروان، يقول:

وَأَرَى النَّجْمَ طَلَعْنَ غَيْرَ زَوَاهِرٍ فِي أَفْقِهِنَّ وَأَظْلَمَ الْقَمَرَانِ
وَأَرَى الْجِبَالَ الشَّمَّ أَمَسَتْ خَشَعًا لِمَصَابِهَا وَتَزَعَزَعَ الثَّقْلَانِ⁽²⁹⁾

ويختتم قصيدته بالتساؤل عما إذا كان في الإمكان أن تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزّها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، بعد ما لعب الزّمان بأهلها، وسلبتها الأيام حسنّها وجمالها؟ فيقول:

أترى الليالي بعدما صَنَعَتْ بنا تُقْضِي لنا بتواصلٍ وتَدَانٍ؟
وتعيّد أرض القيروان كَعَهْدِها فيما مضى من سالفِ الأزمانِ
أَمَسَتْ وقد لَعِبَ الزّمانُ بأهلِها وتقطعت بهم عُرَى الأقرانِ
فتفرّقوا أيّدي سبأ وتشتّتوا بعد اجتماعهم على الأوطانِ⁽³⁰⁾

كانت هذه مقتطفات من نونية ابن رشيق في بكاء القيروان، وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتا، وقد صوّر لنا فيها الشاعر النكبة تصويرا دقيقا، كما وصف حال المدينة في أيام عزّها ومجدها، وما آلت إليه بعد اقتحامها. جاء كلّ ذلك بأسلوب عربيّ مبين، بالرّغم ممّا تسرّب إليه من جهل مضطربة ركيكة أحيانا، أمّا عاطفته فصادقة لأئّه من أهل المدينة الذين شردوا وأبعدوا عن ديارهم، فجاءت عاطفته حزينة لأنّ قلبه يقطر ألما وأسى على ما حلّ بمدينة الجميلة من دمار وخراب...

أمّا ابن شرف القيرواني (390-460 هـ)، صديق ابن رشيق السّالف الذّكر، فقد بكى مدينته هو الآخر بشعر رقيق، يدل على امتلاكه لموهبة شعرية، وقدرة فنية على قول الشعر، وخوض غماره في مهارة وبراعة، وممّا وصلنا من شعره في بكاء القيروان، قصيدته اللامية التي يصف فيها جالية القيروان بمدينة سوسة، وما أصابها من مهانة واحتقار، إثر فرارهم بعد نكبة مدينتهم، يقول:

أه للقيروان! أئّه شَجَو عن فؤادٍ بجاحم الحزنِ يصلي
حين عادت به الديار قبورا بل أقول: الديار منهن أحلى
ثم لا شمعة سوى أنجم تح طو على أفقها نواعس كسلى
بعد زهر الشماع توقد وقدّا ومثانِ الثّبال تفتل فتلا⁽³¹⁾
والوجوه الحسان أشرق منهن وتفضلنهنّ معنى وشكلا

إلى أن يقول:

بعد يوم كأنما حُشِر الخلد قُ حفاةً به، عَوَّارِي، رَجَلِي
ولهم زحمةٌ هنالك تحكي زحمة الحشر والصَّحائفُ تُثَلِّي
من أيامي وراءهن يتامى ملثوا حَسْرَةً وشَجْوًا وثُكلاً^(3 2)
وحَصان كأنها الشَّمْسُ حُسْنَا ففتها الأَطمارُ نجلاء كحلًا^(3 3)
ليسوا الباليات من خَشَنِ الصُّو فِ وعادَ الثَّيْبُ في الناس غُفْلًا
نادبات: عَفراءُ تُسَعِّدُ سَعْدِي وسعادٌ تَجِيبُ بالتَّوْحُ جُمْلًا
لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يُودِّعُ جَارًا لا ولا حُرْمَةً تُشِيعُ أَهْلًا
كلُّهُنَّ اعتدى الفراق عليه فاقتَحَمْنَ الجلاءَ حفلاً فحفلاً^(3 4)
مُرِّقُوا في البلادِ شرقًا وغربًا يسكبون الدَّموعَ هطلاً ووبلاً
لا يلاقي النسيب منهم نسيبًا يتعزَّى به ولا الخُلُ خِلًا^(3 5)

والقصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتا، وهي من عيون الشعر العربي في هذا الفن من حيث دقة تصوير ما أصاب القيروانيين من ذلّ وهوان أثناء تعرّض مدينتهم للاقتحام من قبل الغزاة ولا بن شرف قصائد ومقطوعات أخرى في ندب القيروان والحنين إليها، ومنها قوله:

يا قيروانُ وددت أُنَى طائرُ فأراكِ رؤيةً باحث متأمل
أهاً وآيةً أهة تشفي جَوَى قلبِ بنيران الصَّبابةِ مُصْطَلِي
أبدتُ مفاتيحُ الخطوبِ عجائبًا كانت كوامِنَ ثُحتَ غَيْبٍ مُقْفَلِ

والآن ننتقل إلى شاعر قيرواني آخر، ألا وهو: أبو الحسن الحصري القيرواني، صاحب القصيدة الشهيرة التي مطلعها:

يا ليلُ الصَّبِّ متى غَدُه أقيامُ الساعةِ مَوْعَدُه^(3 6)

ولد في حدود سنة عشرين وأربعمئة للهجرة 420 هـ بالقيروان^(3 7)، وفيها قضى شبابه، أي: نحو ثلاثين سنة من عمره، وبعد نكبة القيروان اضطرّ إلى الهجرة من وطنه كما فعل الشعراء السالف ذكرهما من قبل، ابن رشيق وابن شرف، والتجأ إلى سبتة واستقرّ بها يدرّس علم القراءات ثم اجتاز إلى الأندلس واتصل ببني عبّاد في إشبيلية ومدحهم ثم انتقل

بين عواصم ملوك الطوائف وأخيرا حلّ بمدينة طنجة، وبها توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة (488 هـ).

وقد ألمته نكبة القيروان كبقية شعراء عصره، فقال يندبها بقصيدة طويلة تقتطف منها هذه الأبيات:

موت الكرام حياة في مواطنهم فإن هم اغتربوا ماثوا وما ماتوا
يا أهل ودي لا والله ما انتكتك عندي عهد ولا ضاقت مودات
لئن بعد ثم وحال البحر دونكم لئن أرواحنا في النوم زورات
ما نمت إلا لكي ألقى خيالكُم وأين من نازح الأوطان نومات
إلى أن يقول:

أصبحت في غربي لو لا مكاتمي بكتني الأرض فيها والسموات
كأنني لم أذق بالقيروان جنى ولم أقل ها لأحبابي ولا هاتوا
الأسقى الله أرض القيروان حيا كأنه عبراتي المستهلات⁽³⁸⁾

ونلاحظ أن الحصري أكثر براعة في الشعر من صاحبيه: ابن رشيق وابن شرف، ولعلّ لآفة العمى التي أصيب بها الحصري دورا في ذلك.

وبكى القيروان أيضا، بعد نكبتها الشاعر عبد الكريم بن فضال القيرواني، فقال:

كيف يا قيروان حالك لَمَّا نكرا لئن سلكت المنظوما
كنت أم البلاد شرقا وغربا فمحا الدهر وشيك المرقوما⁽³⁹⁾

3- الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان:

في ختام بحثنا هذا، يجدر بنا أن نشير إلى بعض الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان، وهي:

- 1- الشعراء الذين رثوا القيروان كلهم من أهلها، وقد ألجأهم الهلاليون إلى هجرها، والفرار منها، ولدّا بالغوا في تصوير المأساة، أي: ما نزل بها من صنوف التدمير والتخريب والعسف والهوان...

- 2- الشعرُ فنٌّ من فنون الكلام، يعتمد على الصوّر والأخيلة التي تقتضي أثر الحقيقة وتلتصق بها، وبالنظر إلى أن الحقيقة قد وقعت فعلاً، فإنّ علم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنّه يوضّحان مدلولها⁽⁴⁰⁾، ولذلك يمكن أن يستفيد التاريخ من الشعر، ولكن لا يجب الاعتماد كليةً كوثيقة أو سند تاريخي دون تمحيص وتدقيق...
- 3- بعض الشعراء لم يذكروا الهلاليين بسوء، وإنما أرجعوا المصير المحتوم، أي: نكبة القيروان إلى القضاء والقدر ودعوا الله أن يعيدها إلى سالف عهدها...
- 4- ما وصلنا من شعر في هذا الفن، قصائد ومقطعات، ولم يختص أيُّ شاعر بهذا اللون من الشعر...
- 5- بالنسبة لطول النفس وقصره: لقد طالت قصائد بعض الشعراء كنونية ابن رشيق ولامية ابن شرف، وتائية الحصري، أمّا بقية الأشعار التي وصلت إلينا فمقطعات قصيرة.
- 6- أمّا بالنسبة للوحدة الموضوعية: فقد جاءت قصائدهم ومقطعاتهم كلّاً متماسكاً، يصعبُ أن نجد فيها ثغرات وقد أعطى هؤلاء الشعراء لهذا الفن أهمية، فكانوا من أوائل الذين أفردوا له قصائد ومقطعات...
- 7- تميّزَ شعرُ رثا القيروان بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنّه يصدر عن عاطفة وأسى عميقين، ويبدو لنا الحزن واضحاً في ثنايا القصائد والمقطوعات...
- 8- أمّا الأسلوب، ففي جملة سهلة، يمتازُ بالموسيقى الحزينة والرّنة الواجعة، والألّة الوجيعّة، وهو يختلفُ من شاعر إلى آخر، فأسلوبُ ابن رشيق ركيك، وقد يبلغ حدّ الإسفاف أحياناً، ومردّد ذلك أن ابن رشيق كان ناقدًا أكثر منه شاعرًا، أمّا أسلوب ابن شرف فكان سلساً، وألفاظه واضحة مألوفة، وقد برع في تصوير المدينة والهاربين منها، أمّا الحصري فكان أكثر براعة في الأسلوب من صاحبيه ابن رشيق وابن شرف، فأسلوبه متين السبك، جميل اللفظ مشرق الديباجة، ولعل لأفة العمى التي أصيب بها الحصري دوراً في ذلك، أمّا ابن فضال فلا نستطيع الحكم على أسلوبه وشاعريته لقلة ما وصلنا من شعره في هذا الباب.

الهوامش

- (1) هو حسن بن رشيق، مملوك من موالى الأزد، وُلد بالمسيلة سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة (390هـ)، ونشأ بها، وتآدبَ بها يسيراً، وعلمه أبوه صنّعه وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم، وتاقت نفسه إلى التزيّد من ذلك، وملاقة أهل الأدب فرحَلَ إلى القيروان سنة ست وأربعمائة (406هـ)، فأخذ عن جُلّة علمائها، ثم اتصل بالبلات الصنهاجي سنة سبع عشرة وأربعمائة (417هـ) ومدح المعزّ بن باديس، وأصبح من شعرائه المقربين... (ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص: 439-440. ط تونس 1986)، وأنظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 (ط. إحسان عباس). والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص: 298 والسيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص: 111، (طبعة القاهرة).
- (2) هو حسن بن رشيق، مملوك من موالى الأزد، وُلد بالمسيلة سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة (390هـ)، ونشأ بها، وتآدبَ بها يسيراً، وعلمه أبوه صنّعه وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم، وتاقت نفسه إلى التزيّد من ذلك، وملاقة أهل الأدب فرحَلَ إلى القيروان سنة ست وأربعمائة (406هـ)، فأخذ عن جُلّة علمائها، ثم اتصل بالبلات الصنهاجي سنة سبع عشرة وأربعمائة (417هـ) ومدح المعزّ بن باديس، وأصبح من شعرائه المقربين... (ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص: 439-440. ط تونس 1986)، وأنظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 (ط. إحسان عباس). والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص: 298 والسيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص: 111، (طبعة القاهرة).
- (3) هو محمد بن أبي سعيد، المعروف بابن شرف القيرواني، الأديب الشاعر، ولد في مدينة القيروان سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة، والقيروان في أوج ازدهارها رافلةً بالعلوم، حافلة بالفنون، زاخرة بالعديد من العلماء والأدباء الكبار، فتلقى العلم والأدب عنهم، حتّى نبغ وأجاد وأصبح من شعراء الدولة الصنهاجية المقربين، ونديماً لأمرها المعز بن باديس الذي حاز إعجابه وحظي بعنايته هو وصديقه ابن رشيق، حيث كان المعزّ يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، وبقي ابن شرف في هذا الجو الأدبي الخصب حتّى غادرها إلى الأندلس التي توفى بها عام ستين وأربعمائة للهجرة (ديوان ابن شرف، ص: 19 وما بعدها) وأنظر عنه: ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص: 571 ط مكتبة الثقافة 1975م. وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج19، ص: 37، (ط. القاهرة 1936).
- (4) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني، عاش في القرن الخامس الهجري، وشهد نكبة القيروان سنة 449 هـ ورثاها بكية شعراء عصره... (أنظر عنه: الخريدة للأصفهاني - قسم شعراء المغرب والأندلس - ج2، ص: 188. وديوان الحصري القيرواني (أبو الحسن). ص: 38).
- (5) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص: 347 وأنظر ما بعدها، وانظر أيضاً: المسعودي مروج الذهب، ج3، ص: 511 وما بعدها (ط. الجزائر).

- (6) المسعودي: المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (7) المسعودي: المصدر السابق، ص: 511-512، وردت الأبيات دون ذكر قائلها، ووجدت اسم الشاعر في كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص: 255 لكنه لم يذكر المصدر الذي استقى منه المعلومة.
- (8) المسعودي: المصدر السابق، ص: 513-514.
- (9) الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص: 226-255.
- (10) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص: 586 (ط. دار إحياء العلوم، بيروت). وأنظر أيضا الجاحظ: الحيوان، ج1، ص: 224 و354. (تحقيق عبد السلام هارون).
- (11) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج2، ص: 129.
- وأنظر أيضا: المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص: 236-237 و242 وما بعدها.
- (12) ابن الرومي: الديوان، ج2، ص: 419 (تحقيق: الدكتور حسين نصار).
- (13) المصدر السابق، والصفحة نفسها.
- (14) الدكتور عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص: 320.
- (15) الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية، ص: 229.
- (16) انظر عن الفتنة: ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص: 42 وما بعدها (تد: ليفي بروفنسال. و: ج. س. كولان).
- (17) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ونشر باسم تاريخ إسبانيا الإسلامية ص: 107، وأنظر القصيدة كاملة هناك (107-108) تحقيق: ليفي بروفنسال. ط2، 1956. نقلا عن الدكتور الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص: 240.
- (18) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص: 105، نقلا عن الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ص: 138-139.
- (19) ابن عذاري: المصدر السابق، ص: 110.
- (20) انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها، وأنظر أيضا: ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص: 35، (ط. القاهرة 1955م).
- (21) ابن شرف: الديون، ص: 20 (تحقيق: د. حسن ذكرى حسن).
- (22) المصدر نفسه، ص: 24.

- (23) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص: 298 وأنظر: لين خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 والسيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص: 504، (ط. القاهرة) وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج8، ص: 111، (ط. القاهرة).
- (24) رابح بونار: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص: 360-361.
- (25) رابح بونار: المرجع السابق، ص: 361.
- (26) رابح بونار: المرجع السابق، ص: 361.
- (27) رابح بونار: المرجع السابق، ص: 361.
- (28) المرجع السابق، والصفحة نفسها.
- (29) المرجع السابق، والصفحة نفسها.
- (30) المرجع السابق، ص: 363.
- (31) متان: ج. مثن. المتان: ما بين كل عمودين.
- الذبال: ج. الذبالة: الفتيلة.
- (32) الأياشي: جمع أيم: من لا زوج له. الشجو: الحزن والهمل، الثكل: الموت والهلاك، وفقد الحبيب، وأكثر استعماله في فقد المرأة لزوجها أو ولدها.
- (33) الحَصَانُ: المرأة العفيفة البعيدة عن الرية. النجلاء: واسعة العينين في جمال.
- (34) الجلاء: الخروج من الوطن. الحفل: الجمع من الناس.
- (35) ديوان ابن شرف، ص: 89-90-91-92 (تحقيق د. حسن ذكرى حسن).
- (36) المصدر نفسه، ص: 86.
- (37) ديوان الحصري، ص: 143 (تحقيق: محمد المرزوقي والجيلالي بن الحاج يحي).
- (38) المرجع السابق، ص: 125.
- (39) المرجع السابق، ص: 125.
- (40) المرجع السابق، ص: 38.